سلسلة الأنوار
*Collection Lumières*
*ISSN* (2716-7852 ) ر د م ك
المؤتمر الدولي حول: خطاب النسوية والثقافة العربية الإسلامية المعاصرة (مارس 2014)

# السَّردُ والأنوثة :هواجس الرِّواية الجزائرية النّسائية
# (قـــــراءة في خطـــاب الــــراوي الأنثى)

**د. علاَّل سنقوقة**
**جامعة الجزائر 2**
sengouga_allel@yahoo.fr

**"لقد غيّر تهديد الأقارب سلّم مخاوفي .**
**إنّ امرأة لا تخشى القتلة، تخاف مجتمعا يتحكّم حماة الشّرف في رقابه.**
**ثمّة إرهاب معنوي يفوق جرائم الإرهابيين هالة الوافي (الأسود يليق بك لأحلام مستغانمي)**

يترجم خطاب الرواية —بحسب ميخائيل باختين–لغات مختلفة وخاصيات أسلوبية معيّنة متعددة، وتقوم اللغة التي هي أساس هذا الخطاب على رؤية إلى العالم بل " حتى بوصفها رأيا شخصيا، اللغة (هي) التي تضمن أقصى حدّ من التفاهم في كلّ دوائر الحياة الإيديولوجية ،ولهذا السبب تعبّر اللغة الواحدة عن المركزة الاجتماعية والسياسية والثقافية."(1)

لهذا الأمر —كما يرى باختين– لا تستطيع اللغة احتواء موضوعها المعقّد ،وهو ما يبرز في صراع اللغات في الخطاب الروائي الواحد (2).

وهو منطلقنا هنا في تتبع نص روائي لأمين الزاوي حاول أن يقدّم هذه الظاهرة الإيديولوجية والأسلوبية بعدما تقصّينا آراء الروائيات الجزائريات في الأسئلة التي تشغلهنّ روائياً.

فمن المسلّمات التي طرحتها الدراسات الاجتماعية للرواية أن الرواية لا تعكس فحسب إيديولوجيا المجتمع بل هي جزء أساسي فيه ،وقد فرّق النقد بين الرواية الحوارية والأحادية التي يسيطر عليها صوت المؤلّف.(3)

تعددت أصوات الكتابة الروائية في الجزائر وبخاصة في العشريتين الأخيرتين على الأقل ،حيث برزت وجوه جديدة حاولت أن تعطي للسرد الروائي بعض الصور المختلفة .

فضلا عن الأصوات الرجالية ،ظهرت أصوات لكاتبات روائيات وهي علامة جديرة بالبحث والاستقصاء انطلاقا من الأسباب الآتية :

1-قلة الأسماء –عدديًا- قياسًا إلى طبيعة الكتابة الأدبية النّسوية في العالم العربي على الأقل.

2-الهموم والهواجس والأسئلة التي طفت على مستوى الخطاب الروائي ،وهي أسئلة تتسم بالحدة حينا والجرأة مرات أخرى ،وديدن الكتابة النسائية في الأدب الجزائري الاستكانة إلى الخطاب التقليدي المحافظ .

3-السبب الثالث هو تحصيل حاصل،أي السعي نحو بلور رؤية جمالية "بنيوية" عن السرد في علاقته بالتأنيث ونتناول هنا مسألة الرّاوي الأنثى ،فالأمر ما أصبح المؤلّف /الرّجل يستعير صوت الأنوثة ،فلابدّ أنّ هناك مرامي وغايات ،وهو ما حاولنا الكشف عنها ،انطلاقا من رؤية بنيوية فنّية .

## أسئلة الهوية والجسد والحرية

وللتعرف على هذه الأسئلة،حاولنا تفكيك بعض النصوص "**الحوارية**" ذات الصلة، من خلال مجلاّت ومنابر إعلامية عربية حاولت استنطاق الكاتبات الجزائريات للتعرّف على هواجسهنّ الإبداعية ، وهي في مجملها هواجسّ تتعلّق بخطاب الأنثى في مجتمع عربي ذكوري ،يؤسس ذكوريته على مجموعة من القيم الاجتماعية والدينية والأسطورية.

ولكنّ الملاحظ أنّ الكاتبة العربية انخرطت في إشكاليات عامة ،هي مؤشّرات على تناقض الخطابات الثقافية والسياسية في العالم العربي(4).

فمن القضايا المثارة بقوة، نجد إشكالية الصراع اللغوي بين المثقّفين الجزائريين .

تقول الكاتبة أحلام مستغانمي في هذا السّياق مدافعةً عن اختياراتها الإبداعية واللغوية : "**حوربت في فرنسا من طرف الكتاب الفرانكفونيين لأنّني استحوذت على الساحة الأدبية خاصة بعد أن ترجمت رواية ذاكرة الجسد , وكانوا يتهمون اللغة العربية بأنّها لغة تحمل جينات إجرامية**".(5)

وتواصل أحلام مستغانمي قائلةً :" **اعتبر أنّ الصمت جزء من الإبداع واعتبر كل ماهو خارج عن الكتابة ثرثرة و أنا ملك لهذا الوطن و أعتقد أنّ الشباب سيدافع عني إذا أحس بقربه مني فالجزائري يدافع عنك إذا أحس بأنك صورته , فإذا هوجمت آسيا جبار لن يدافع عنها الجزائريون لأن أدبها بعيد عن الصورة الواقعية للجزائر الحالية**".(6)

تتحول الكتابة باللغة العربية –بحسب أحلام مستغانمي –إلى مسألة مصيرية فـ" **الكتابة بالعربية في نظري ضرب من الجهاد، فمن أراد أن يجاهد فليكتب بالعربية**".(7)

تتحدث أحلام أيضا عن روايتها " **الأسود يليق بك** "(8) وتضع أسئلتها ضمن خطاب يتغيّا قراءة الحاضر العربي في علاقته بالذاكرة التاريخية ،تقول عن روايتها بأنها: " هي رواية تروّج للبهجة، وتحرّض على الحياة. الرواية تدافع عن الحياة في الدرجة الأولى، وأعتقد أنها رواية الساعة، وفيها كل قضايا الساعة التي يعيشها العالم العربي، وفيها تتمة للجانب التاريخي والثوري الجزائري، رغم أنّني لم أسعَ لتكون تتمة لتاريخ الجزائر، ولكن وجدت نفسي من جديد متورّطة في إكمال التاريخ الجزائري.... فيها هواجسي كمواطنة عربية، لكنّي لم أكن أقصد أبداً أن أكتب بالدرجة الأولى عن الربيع العربي، لأن الكاتب يحتاج إلى مسافة زمنية قبل أن يكتب عن أحداث تاريخية. وكما ذكرت، فنحن في قلب الحدث، وكل ما كتبته عن الجزائر كنت أحتاج إلى عشر سنوات على الأقل لتتضح رؤيتي له، ولكن بالمصادفة وجدت نفسي في داخل الحدث، هكذا لأن البطلة في الرواية من «الأوراس». "(9)

رواية "**الأسود يليق بك**" رواية تنخرط في ذات الكتابة التي بدأتها أحلام مستغانمي في ذاكرة الجسد، إنّها رواية تسائل التاريخ وتترصّد اللحظات الشعرية العميقة في الذات وهي تحمل في اسمها معنى اغوائيا. البطلة فتاة جزائرية من أب جزائري وأم سورية، قتل الإرهابيون أباها في حماة زمن الرئيس حافظ الأسد، وكان مطربا قتلوه عن غير ذي حق، كما قتل أخوها بعد ذلك وهي تعيش اليوم في بيروت. إنها قصة حب بين مطربة شابة ابنة سبعة وعشرين ربيعا تسميها "**هالة الوافي**"، وبين ثري لبناني اسمه" **طلال هاشم**" يلتقيان في بيروت وباريس وفيينا. إن البطل حصل على ثروته بالتخطيط والعمل المدروس، انه يضع خططا للإيقاع بهذه الفتاة الجميلة "**هالة الوافي**"، بواسطة أزهار ورسائل وبطاقات حفلات، ودفع إقامة في فنادق غالية الثمن.

## 1–المستوى الاول :الابعاد القيمية والإيديولوجية

تتعدّد المطالب القيمية للأنثى ،خارج النص ، أي من خلال المنابر والوسائط الإعلامية ويمكن حصر منظومة هذه القيم في العناصر الآتية:

نقد المقدّسات: العادات المحافظة ،العنف ضدّ المرأة ،نقد العنف الجنسي ،رفض الكبت

ترى أحلام مستغانمي أنّها لا ترتبط بالحركات النسوية ،كتلك الناشئة في دول الخليج ،حيث ساد ويسود القمع الجنسي بمختلف تمظهراته في المجتمع ومن ثمّ فإنّ أسئلتها التي تطرحها في نصوصها هي أسئلة عفوية، هي نتاج تربية خاصة تقول في هذا الصدد:" **قرأت بما فيه الكفاية من نصوص الأديبات السعوديات كي أفهم جرأتهن. إنهن يدافعن عن أنفسهن. أنا لم أعش الكبت، بل عشت حرة،**

**وبالتالي ليس لديّ الرغبة أن أواجه المجتمع، أو أصطدم معه. أنا خلقت هكذا، وكنت أكتب هكذا منذ صغري، وأنا لا ألومهن؛ لأنّ كتاباتهن ردة فعل، أما أنا فمتوازنة"** .[10]

تكتب أحلام مستغانمي الجنس انطلاقًا من حكايات الحب ،تتجاوز الرؤية الإيروسية البورنوغرافية ليكون المتلقي في النهاية هو الحكم ،أي أنّها تترك مفاصل القصة مفتوحة على القراءة والتأويل ، تقول في هذا المقام :" **أنا لم أكتب عن الجنس بالمفهوم المتعارف عليه ونصوصي وورقي المطبوع أكبر دليل على ذلك، أنا كتبت عن الحب وإن كان الجنس جزءا من حياتنا اليومية لا يمكننا إغفاله، والكاتب يقاس بطريقته في التعامل مع موضوع الجنس بالذات، ففي رواياتي يصل القارئ إلى النهاية دون أن يعرف ماذا حدث بين البطل والبطلة، فأنا أنقل الأحاسيس التي تخلفها الرغبة وراءها، وأنا كاتبة رغبة وليس كاتبة متعة، الرغبة شيء والمتعة شيء آخر، فالمتعة تغتال الأدب بشكل من الأشكال، وفي هذا المقام عندما يقولون لي إني أباع روائيا لأنني أوظف الجنس؛ أقول لهم اقرأوا ما كتبته الروائيات اللبنانيات والمصريات، وأنا لست ضد هذا،ولكن قلمي نسخة مني يتكلم كما يتكلم رجالي، فرجالي هم هكذا وأنا "كائن حبري" ولا أعطي إلا باللغة والأدب تطهير الذوق، فكيف أسعى للمتعة كي يباع عملي**".[11]

***

**فضيلة الفاروق** من مواليد 20 نوفمبر 1967 في مدينة آريس بقلب جبال الأوراس، التابعة لولاية باتنة شرق الجزائر , تعيش ببيروت منذ 1997اسمها الحقيقي هو فضيلة ملكمي

كتبت ‘‘لحظة لاختلاس الحب 1997" و ‘‘ مزاج مراهقة 1999 ‘‘ تاء الخجل 2001’’ و اكتشاف الشهوة 2005" و "أقاليم الخوف 2010" ، خط مشترك واحد يربط بين شخصيات فضيلة الروائية ، وهو التحدث بكل واقعية، و جرأة عن حوادث الاغتصاب ، موضوع بقي ‘‘تابو’’ من المسكوت عنه في العالم العربي و في الجزائر بشكل خاص [12].

تجربة ذات قيمة نوعية، من حيث إنّها سعت نحو تشريح المجتمع العربي المنطوي على ذاته المقنع في أشكال مختلفة من القمع والمنع وما إلى ذلك من الممارسات الغرائبية والتي تحوّلت بفعل الممارسة إلى جدار يفصل الكاتب عن واقعه الحقيقي،ومن القضايا المهمة في كتاباتها نجد ظاهرة الاغتصاب التي جاءت في أكثر من نص لها تقول فضيلة الفاروق في هذا الصدد:" **سلطت الضوء على الاغتصاب باعتباره ظاهرة موجودة ، فلماذا نتستر عليها ، و هذه الاغتصاب يأخذ أنواعا مختلفة ، أنا شخصيا عملت على هذا الموضوع من خلال معايشة واقعية حيث كنت في الجزائر مهتمة جدا بالنساء المغتصبات و كنت**

**أنقل أصواتهن إلى من يهمه الأمر و إلى المعنيين لكن لما فقدت الأمل رأيت أن الكتابة هي أحسن سلاح و أنجع طريقة لإيصال أصوات المسحوقات ممن لا يتحدث عنهن و يتكتم على قضاياهن"**.[13]

تذهب الكاتبة إلى أنّ الكتابة يجب أن تسخّر من أجل المجتمع ،ولذلك لا ترى حرجا أن تكون الكتابة الروائية واسطة بين المجتمع والعالم ،وبالتالي ليس هناك من حرج أن تكون تقنية الكتابة مباشرة لأنها الطريقة الوحيدة الأكثر قدرة على نقل المعاناة تقول: "**التصوير الفوتوغرافي ليس هو الحل لمعالجة القضايا الإنسانية لكن صدقني نحن بحاجة إلى هذه اللغة لنعلم الناس كيف يتصرفون و كيف يبنون حياتهم في الداخل من خلال كسر المحظور،فالمواضيع الجريئة قليلا ما يكتب عنها و إن كتب عنها في عالمنا العربي يعتبر الأمر خارجا عن القانون و شذوذا عن القاعدة في حين أنها وقائع ثابتة . لا أريد من ألأدب أن يقبع في الصورة النمطية ،القائمة على التصوير و النقل المباشر فقط بل أريد منه أن يعطي حلولا ناجعة و يستشرف المستقبل من خلال رؤية الكاتب الواسعة التي تدري بأسباب الأشياء ، لكن حتى تقرأ رواياتنا يجب أن تجلب لدى القارئ متعة"**.[14]

تقف فضيلة الفاروق ضد الجنس بوصفه شكلا من أشكال النظرة الذكورية إلى المرأة العربية ،إنّه" العيب " كما تسمّيه وهي تجد صعوبة في أن يفهمها المتلقي العربي الذي يمارس عليها الحجب والقمع تقول موضحة هذه الإشكالية :" **هل حين أتحدث عن الجنس الذي أسميه " العيب" هو ابتذال؟ هل انتقادي للجنس دون الحب هو ابتذال ؟أنا انتقدت في روايتي "اكتشاف الشهوة" المجتمع الشرقي عموما لأنّني رأيته ينبذ الحب و الودّ و ينساق إلى ما يسمى ب"الجنس الحيواني" ووظيفتي كانت نقلا للواقع المزري،فالاغتصاب و الحديث عنه هو موضوع يطفح بالإبداع و ممهور بالجدة فأنا أكتب وأنتم تؤولون ، أوِّلوا مثلما تشاؤون، لكن الحقيقة هي أنّني أكتب ملتصقة بالواقع و أبدع من خلال الوضع المعيش ليس إلا"**.[15]

تدافع فضيلة الفاروق عن "طروحاتها" بشأن حرية الكتابة، ولهذا لا تفتأ تردّ بحزم على كلّ محاولات تكميم أصوات المرأة باتّهامها اتّهامات ارتجالية من أجل قتل مشوارها الإبداعي. تقول في عمود صحفي لها بجريدة "الشرق" بعنوان :" عن أدب النساء" (تابعت ما كتب في الصحف السعودية عن ندوة نادي الطائف الأدبي حول الروايات النسوية، وهالتني الأحكام القاتلة التي هوت على الرواية التي تكتبها المرأة وطعنتها في الصميم، على أنها رواية غارقة في الجنس، حسب ما نسب للدكتور حسين المناصرة أستاذ الأدب والنقد بجامعة الملك سعود، وأنها لا تحضر كقيمة فكرية واجتماعية بل كجسد، كما في القول المنسوب لرئيس

النادي... ولعل كلاما كثيرا سال خلال الندوة للزج بهذا الأدب في إطار ‘‘التفاهة’’ غصبا عنه، دون الإمعان حتى في جوهره.

نعم لم أكن حاضرة خلال الندوة، وليس من حقي أن أغضب أو أتوتر من أجل كلام قيل عن رفيقات القلم في السعودية، لكن أريد أن أسأل ماذا عشنا في مجتمعاتنا المغلقة غير الاهتمام بالمأكل والملبس ورغبات أزواجنا لنكتب شيئا خارقا يدهش النقاد؟ ماذا نعرف من الحياة غير الرقعة التي يرسمها لنا الرجل وهي البيت والسوق والمسلسلات العربية والثرثرة على الهاتف؟ هل منحنا الرجال مساحات أوسع لاختيار أوجه مختلفة للحياة؟ حتى في أدبهم ‘‘المبارك’’ نجد النماذج النسائية بائسة وتثير الشفقة، لم يخترعوا نموذجا نقتدي به لأننا قبل أن نصبح كاتبات كنا قارئات وتتلمذنا على أدب فطاحل الرواية العربية من نجيب محفوظ وإحسان عبدالقدوس ويوسف إدريس إلى كتاب اليوم الذين يرسخون النماذج نفسها .رجاء توقفوا عن ممارسة النقد وكأنه محاكمة سقراط الشهيرة)(16)

تشاركها هذه النظرة الكاتبة **آمال بشيري** في روايتها :" **العالم ليس بخير"**(17) إذ هي نصٌّ يسعى إلى تصوير الممنوع /الطابو تقول: (اشتغلت فيها بمزاج رائق، اشتغلت فيها على ذاكرة بيوت المومسات وما يحكى عنها، و هي من جهة تطرح علاقة المرأة بالرجل في الوطن العربي، ولكن بالدرجة الأولى علاقة المرأة بالمرأة في بيت مومس وفيه يتداخل معنى الحب والخطأ. هي بحث في عالم الخطايا وعن معنى الخطيئة ومفهوم العشق والحب لدى المومسات. أنا أتقاسم الحلم مع الآخر كرما مني، الرواية ليست مرافعة بقدر ما هي وصف لحالة". و إن كانت الرواية تسرد كل هذه التفاصيل السوداوية التي تعج بها الحياة والعالم معا ،فهذا لا يعني أن العالم ليس بخير فعلا أو كثيرا ، العالم مازال طبعا بخير و إن بدرجات قليلة و متفاوتة والشاعرة والروائية آمال بشيري نفسها تقول: " العالم جميل، نحن من يصنع العالم والحياة والزمن. وأومن أن العالم ليس بخير عندما لا ينتبه الآخر إلى أنه صانع العالم") وتواصل آمال بشيري نزعتها ذاتها من خلال النبش في أسرار المجتمع العربي ،خاصة منه الخليجي حيث تتحول الأنثى إلى مجرد سلعة للبيع في المزاد وقد شكّلت روايتها (**آخر الكلام**)(18) هذا البعد الدرامي لمصير المرأة العربية في مجتمع غير متسامح مع "الأنوثة" ولا يعترف بها على الإطلاق كحالة متميزة عن الرجل .

تؤكد آمال بشيري أنّ ما تفتقده الكتابة السردية الجزائرية خاصة في الآونة الأخيرة ،تلك التي كرّست نفسها لتيمة الإرهاب هو شحّ المخيال وغياب الحرية ،إذ ظلّ الرقيب الداخلي ساكنا في ذات الكاتب ، حتّى وإن تغيّرت الأوضاع السياسية تقول :( **هناك أيضا نقطة علينا الانتباه لها في الرواية الجزائرية، والمتعلقة أيضا بالتيمة، وعلاقتها بالحرية، نجد بأن الروائي الجزائري يحرص بكل ما يملك من حسابات**

**على إبقاء ذلك الرقيب في عقله، وهو يكتب، ذاك الرقيب أوجد بفعل التراكم القمعي خلال مختلف مراحل التربية التي نتلقاها، فنكاد أن نجزم كقراء بأن الروائي الجزائري يكتب تكريسا للقمع والاضطهاد لهذا نجد في معظم الأحيان رواية هزيلة، وكئيبة خالية من أي حلم، ومن أي دهشة.).**[19]

بيد أنّه يلاحظ أنّ السرد النسائي الجديد ،لم ينطلق من البيئة الجزائرية بل كان مهاجرا باتجاه المشرق وخاصة لبنان ومصر ،وكأنّ الفضاء الجغرافي له قيمة اعتبارية ،كونه مرتبطًا بقيم الحداثة والحرية والتطور ،وتزامن ذلك مع سنوات التحوّل السياسي التي عاشتها الجزائر وما رافقتها من فوضى وهيمنة واضحة للقيم الدينية السياسوية التي ساهمت إلى حد كبير في بعث قيم المساواة والحرية والديمقراطية التي دعا إليها خطاب الأنوثة .[20]

يتأنّث ويزدهي المشهد الروائي الجزائري باسم الكاتبة ياسمينة صالح وهي –إن شئنا تزمينها– من جيل الاستقلال الثاني ، من مواليد الجزائر العاصمة، بالضبط حي بلكور (بلوزداد) العتيق عام 1969، وهي من أسرة جزائرية مناضلة معروفة، شارك والدها في الحرب التحريرية الجزائرية. كما استشهد عمها وخالها أيضا في نفس الثورة سنة 1967 في الأراضي الفلسطينية.

قال عنها الأديب التونسي حسن العرباوي في جريدة الصباح التونسية: " **ياسمينة صالح اسم يبدأ الآن ولن ينتهي، لأنه ارتبط بالإبداع الجميل الذي يمضي هادئا و ثائرا، إنها الدم الجزائري الجديد الذي لا يخشى من مواجهة الماضي و التاريخ معا، وهي ببساطة بحر صمت من النوع المميز**"[21].

حاصلة على بكالوريوس علم نفس من جامعة الجزائر، كما حصلت على دبلوم في العلوم السياسية والعلاقات الدولية. كاتبة بدأت مشوارها الأدبي بالقصة القصيرة ، حيث حصلت على جوائز أدبية من السعودية و العراق و تونس و المغرب و الجزائر، ثم تحولت إلى الرواية حيث حصلت روايتها الأولى **بحر الصمت**[22] على جائزة مالك حداد الأدبية لعام 2001م. صدرت لها ثلاث روايات و مجموعتان قصصيتان، الأولى بعنوان "**حين نلتقي غرباء**"[23] و الثانية ( **قليل من الشمس تكفي**)[24]. حازت على جوائز أدبية من السعودية،والعراق، وتونس، والجزائر،آخر رواياتها "**وطن من زجاج**"[25]

اشتغلت في بداياتها في التدريس لكنّها انسحبت لتشتغل في الصحافة المكتوبة كما أشرفت سنة 2000 على القسم الثقافي في مجلة نسائية جزائرية.

في روايتها "**وطن من زجاج**" تتسّلق أشجار التاريخ الوطني محاولة التّعرّف على الحاضر الدموي ، من خلال شخصية المجاهد عمي العربي الذي يختطفه الإرهاب ،تقرأ الرواية موضوعة الإرهاب من زاوية خاصة فهي ترى أنّ الخونة هم الذين احتلّوا الأماكن السيادية في الدولة الجزائرية المعاصرة ،بينما –عن عمد–لم

يُحظَ المجاهدون الحقيقيون بأيّ اعتبارٍ بعد الاستقلال ،هي عمليةُ مراجعةٍ للاستقلال الذي لم يخرج من دائرة الكرنفالية والاحتفالية .

عملية استعادة التاريخ بكل ما يحمله من أبعاد ثقيلة ،طريقة في الحكي نجدها في مختلف التجارب الروائية النسوية الجديدة .

***

طرحت الكتابة النسوية أو النسائية في العالم العربي أسئلة حقيقية متصلة بطبيعة هواجس المرأة الكاتبة الفكرية والفلسفية والاجتماعية وغيرها..

وكان تأثير الحركة النسوية بأبعادها المطلبية والفكرية واضحا من خلال الطروحات الجديدة التي رأيناها تطفو على مستوى الخطاب الأدبي المرتدي رداء التخييل والأسطرة والاستعارة ، وكان الحكي الوسيلة الفضلى للتعبير عن هذه العوالم الخفية في ذات الأنثى .

ظهرت كتابات المرأة بوصفها خطابا يتغيّا البوح والفضح وكسر الطابوهات المختلفة بواسطة اللغة باعتبارها لعبة المخيال والمجاز التي تتيح للمرأة ان تتعرّى أو تصرخ بأعلى صوتها دون أن تجد من يدينُها أو يصمها بأنّها عورةٌ جسدًا وصوتاً.

لقد ظهر لدى الكاتبة العربية منذ الستينيات على الأقل اهتمامٌ خاصٌّ بأسئلة الجسد والأنوثة والمشاركة الاجتماعية والسياسية بوصفها جزءًا أساسيًا في المجتمع العربي الحديث وليست مجرَّدَ هامشٍ منزوعَ القيمة مسلوبَ الإرادة .

ولعلّي لا أجانب الصواب عندما أزعم أن الكاتبة مي زيادة كانت من أولى الأصوات النّسائية في العالم العربي التي عكست وعيها بمسألة التراث والحداثة وحتمية المحافظة على العادات الجميلة "غير أنّها لا تكفينا إذ لابد من اكتساب الحياة والحرية"[26] كما قالت ، كما تجلّى الوعي في مسألة الحرية الجمعية (حرية البلد) والاستقلال كانت تلك بعض الملامح الأساسية في التراث الأدبي ولكن النزعة النّسوية تجلّت أكثر وبشكل لا تخطئه العين في أعمال الروائية غادة السمان وتعلل ذلك قائلة بوضوح تام :" **لقد نشأنا في بيوت تحكمها التقاليد الشرقية ،هذه التقاليد التي انحدرت في عظامنا وعروقنا وباختيارنا ورغما عنا فرنا وراء قرنٍ.كانت كل شيء في ميولنا وفجأة ترانا نمرّ عبر هذا الباب فنقرأ كيتس ونتعرّف على الغرباء وتدوّخنا الصحف وتقهرنا بلا هوادة الرياح القادمة من كل الاتجاهات ونذهب إلى أوروبا وتأتي أوروبا إلينا ونتفرج على السينما ثمّ فجأة وأنت كمن يحلم تشاهد الميني جوب على الروشة...وهكذا نجد انفسنا نفكر ما يريد سارتر ونتصرف كما أراد لنا آباؤنا وحين نكتشف نظامه**

**المتناقض نتمرّد وبعد قليل من الوقت نعود فنعيد النظر من جديد ..إننا جيل تتنازعه الاتجاهات بعنف..مثل الذي يصعد إلى القطار ثم يزل منه وأحيانا يمشي في ممراته مع اتجاهه وأحيانا عكس اتجاهه ".** (27)

تتحدد هنا العلاقة ثنائية الشرق والغرب الفاعل والمفعول/ المؤثّر والمتأثر وهي علاقة تنسج طبيعة المخيلة العربية والتفكير العربي في الفنون والآداب جميعا وقد نبّه إليها إدوارد سعيد في كتابه المؤسس :" الاستشراق/ المفاهيم الغربية للشرق"(28) كما راجعها الدكتور عبد الله إبراهيم من تقصّي بداية السرد الروائي برواية "زينب" ، يصبح السرد كاشفا عن هوية المرأة في الحركة النسوية العربية ولكنّ البارز في المستوى التطوّر التاريخي والتحوّل الكرونولوجي للكتابة الروائية والسردية العربية أنّ صوت الأنثى كان نشازا .دخل ضيفا غريبا على الذهنية العربية وتزامن مع مجموعة من الأفكار المتأثّرة بالتنوير الغربي ،بطبيعة الحال، في سياق الحوار والقطيعة بين الحداثة والتّراث أو بين الأصالة والمعاصرة ولقد تشكّل خطاب ذكوري ، منتج من قبل كتّاب حداثيين في الوطن العربي وظّفت المرأة كصوت سارد ، شبيه بشهريار في الأثر الخالد :**ألف ليلية وليلة** لعب فعل الحكي خلاص الأنثى إزاء الصوت الذكوري الغالب وسلطته القمعية المرتبطة بالسلطة العرفية أو الرمزية .

في سياق دراساتنا للرواية الجزائرية لفتت نظري ظاهرة جديدة في تقنيات السرد وهي ارتكان بعض التجارب الروائية إلى توظيف الراوي /المؤنّث أو الأنثى ،كما تركن بعض الكاتبات الجزائريات الجديدات إلى استعارة ضمير المذكّر وهي ظاهرة فنية في المقام الأوّل ولكنّها تنطوي على دلالات فلسفية وفكرية ظاهرة او مضمرة ،جعلتني أطرح السؤال النقدي وهو :

ما الذي يمكن أن يقوله الكاتب الرجل على لسان صوت المرأة أو الأنثى ؟ ثمّ ألا يشكّل هذا المنحى في الكتابة الحداثية شكلا من أشكال ارتهان الأنثى العربية في خطاب لا تنتجه هي بل هو خطاب يستعير بنيته الأساسية من الخطاب السلفي الماضوي الذي يسعى إلى تجاوزه حتّى وإن كان منتجه المثقف المنخرط في فكرة الحداثة؟

يظهر صوت الراوي (ة) متعددا في رواية أمين الزاوي حادي التيوس أو فتنة النفوس لعذارى النّصارى والمجوس "(29) ولكنّ صوت المرأة أكثر هيمنة وبدت الرواية مجموعة من الخطابات الإيديولوجية التي تفضي إلى رأي إيديولوجي واحد في النهاية هو صوت المؤلّف كما يقول الدكتور حميد لحمداني .(30)

يتحوّل الصوت الراوي إلى صوت ناعم يحكي هموم ذات في وسط مخيال ذكوري لهذا يمكن أن نقسم الرواة في الرواية إلى قسمين بارزين : القسم الأول هو للراويات الثلاث وهنّ الشقراوات الفرنسيات الجميلات

اللاتي أردن أن يعلنّ إسلامهنّ في مسجد صغير بمدينة الغزوات ، من هذه الحادثة تتناسل وتتساقط الحكايات المختلفة في النص .

**أما القسم الثاني**: تمثّله أصوات ذكورية وهي: صوت صحفي جريدة القروش وهي أكبر جريدة في الجزائر تهتمّ بالشأن العام وتعطي أهمية كبيرة للمشاكل الجنسية والدينية والرياضية فـ"موضوعات الفضائح هي التي تجلب الانتباه وترفع من عدد القراء وهي دون شك الأمور التي يعيشونها أو يرون صورهم في مرآتها "(31)

الصوت الآخر هنا هو صوت إمام المسجد الذي يحكي أيضا قصّته المثيرة مع شيخه أبو بكر الببعاسي والذي يرمي به في مهمة جهادية في أفغانستان ويستحوذ على حليلته زبيدة ،حيث يكشف خيط السرد عن علاقة سابقة تربط الشيخ بزوجته فيقرر الانتقام ولكنّ يدا أخرى سبقته إليه .

يكشف الإمام عن رغبته في الفوز بالأجمل من الأخوات الثلاث ويسافر معها إلى بلد أوروبي وتقوم نظرته للمرأة على أساس شبقي بحت وتظهر اصوات رجالية أخرى بشكل خافت مثل زوج الأم إلزا أو ماري فرانسواز أمقران الموسيقي الذي تربطه علاقة غير سوية مع ابنته كاترين وزوجها الثاني أسعد الحبيب (الراعي العربي) الذي يستسلم للإغواء الأنثوي ليخدع زوجته مع ابنتها مارتين وسرعان ما يتحوّل إلى صورته الحقيقية : رجل عربي شهواني جنساوي عنيف .

يؤكّد افتتاح الرواية بضمير المتكلّم (ضمير الكاتب) على النزعة الإيديولوجية المسبقة التي تظلل النص إذ يختتمها بقوله:" ولكلّ غايته وغاية المؤمن حورية في الجنّة .والمؤمن يبدأ بنفسه.ونحن نبدأ الحكاية التي جذرها في القلب وفرعها في الكذب."(32) فضمير (نحن) له دلالته الواضحة لا يمكن تجاوزه هنا .

تبرز في مرويات الأخوات الفرنسيات الجميلات الثلاث :مارتين–كاترين–غابرييل مجموعة من الخطابات نستطيع إبرازها فيما يلي :

-**خطاب ضد تشييء المرأة** وتحويلها إلى مجرّد كائن شبقي وتجلّى هذا في موقف إلزا أم الأخوات الثلاث التي تقرر الزواج من عربي هو أسعد الحبيب لأنّه سحرها بشدو نايه ،فقد توهّمت فيه سحر الشرق ،أو جانب الروح ولكنّها سرعان ما تبيّن لها أنّ أسعد الحبيب ما هو إلاّ إنسان عربي رهين جذوره البربرية .

كما تجلّى ذلك من خلال مجموعة من الأفعال الرمزية كاهتمام غابرييل بقراءة الشعر والرواية وكتب الآثار و ثأر مارتين من زوج الأم بإغوائه وتصويره في وضعيات جنسية شاذة إذ يتحوّل الإغواء الجنسي في رأينا هنا إلى سلاح لدى الأنثى ضد النزعة الذكورية الجنساوية التشييئية كما تشكّل الأفعال

الجنسية التي تقوم بها الأخوات الثلاث مع أنفسهنّ محاولة للتخلص من الشبق لا البحث عن المتعة ،فيتحوّل الفعل الجنسي الشاذ منه أو السليم إلى وسيلة للحرية وليس للمتعة

**—خطاب قيمي متعال:** تجلّى في محمولات الخطاب الإيديلوجي للأخوات الثلاث حيث تؤكّد كاترين ومارتين وغابرييل على صورة نمطية للإنسان العربي من مواصفاتها : ضرب المرأة (أسعد الحبيب) ، تأنيث المرأة وتحويلها في المخيال الذكوري إلى مجرّد متعة جنسية قابلة للاستبدال في كل وقت – الضعف الفكري والديني (شيخ جامع مدينة الغزوات) يرتهن خطابه دور المرأة في قيم محدودة مرتبطة عادة بالجسد لاغير .

يؤكّد الخطاب الأنثوي هنا الرغبة في البحث عن أجوبة للذات، فهناك ما يشبه أزمة كينونة ناتجة من هذا الانصهار الجسدي الجنسي بين العربي والآخر لم ينتج في الواقع إلا مزيدا من القلق الوجداني والنفسي والفكري .

في هذا السياق، لابدّ من الإشارة إلى استراتيجية خاصة في آليات اشتغال كل خطاب ، حيث يظهر كل واحد منهما في صوره الآخر ، فالفرنسيات يهربن من أنفسهنّ إلى هوّية العربي ، والعربي المسلم يفرّ أيضا من هويّته المزعومة إلى الآخر عبر بوابة المرأة /الجسد ،في هذه النقطة نرى كيف تتحوّل أحلام الإمام وكذلك الصحفي المكلّف بالتغطية الإعلامية إلى أحلام وردية من خلال الهروب إلى أوروبا انطلاقا على الجسد الأنثوي النّاعم .

يؤسّس ويعضد الخطاب هنا نوعية الطبقة الاجتماعية ،بحيث تعكس كل متوالية خطابية شكلا من الصراع الإيديلوجي بين فئات اجتماعية مختلفة وهو ما أشار إليه رايموت رايش في :" **النشاط الجنسي والصراع الطبقي"[(33)] حيث** تتدخّل عوامل مختلفة في توجيه النّشاط الجنسي ويصبح بالتالي علامة على زمانه .

في راوية :" حادي التيوس.." تحاول الأنثى مساواة نفسها بالرجل في الفعل الجنسي وهو شكل من أشكال محاولة تدارك الفوارق الجنسية بين الجنسين على مستوى التخييل الرّوائي طبعاً.

-تظهر من جهة أخرى مشكلة الدّين من حيث إنّها لم توصل الجنسين معًا إلى السعادة المرتجاة ، ففرق بين ما قرأته غابرييل في الإنجيل عن المرأة وما تجده في واقعها من تكريس ورأسملة الجسد الأنثوي وكبت الجنس على مستوى الممارسة وإطلاقه على مستوى النيات والأفكار يتجلّى هذا الخطاب في الحدث المرتبط بالحكاية ذاتها ، من حيث إنّ السعادة التي تبحث عنها الأخوات الثلاث لا تجدها في

الإسلام العملي (التطبيق) وهنا تظهر مقولة أخرى نعتبرها جزءا من الخطاب الحداثي العلماني الذي ينظر إلى الممارسة الدينية على أساس أنّها لا تمثّل الإسلام بأبعاده العقلانية الحقيقية.

وخلاصة القول، أن الروائي أمين الزاوي لم يستطع هنا تمثّل صوت المرأة وإنّما استعملها فقط لتمرير خطاب إيديولوجي بدا في فصول الرواية كلها ،كان هدفه الأساسي محاربة الخطاب السلفي (الإسلاموي) الجاهز الذي يسجن المرأة في مجموعة من الخطابات الفقهية ولكنّه-أي المؤلف- كان رقيبا على الأصوات الأخرى التي تحمل إيديولوجيات متصادمة ومناقضة للفكرة التي يريد أن يؤسّس لها .

والجدير بالذكر أنّ الخطاب الإيديولوجي عن المرأة اتّخذ صبغة سياسية غير مؤسّسة على أبعاد علمية وفلسفية وهو ما يجعلنا نقول أنّ الرواية كانت خطبة سياسية بليغة ولكنّها لم تكن ذات بناء تعدّدي بما يجعل لخاصية تعدد الأصوات في الرواية تتحقّق بالشّكل المأمول .

**هوامش:**

1-ميخائيل باختين:الكلمة في الرواية،تر:يوسف حلاق،منشورات وزارة الثقافة ،دمشق،سوريا،1988، ص20

2-المرجع نفسه،ص22

3-د.حميد لحمداني: النقد الروائي والإيديولوجيا ،من سوسيولوجيا الرواية إلى سوسيولوجيا النص الروائي ،المركز الثقافي العربي،بيروت(الدار البيضاء)،ط1، ،1990 ،ص7

**4-** سعد بن محارب المحارب: الرواية السعودية-قراءة نقدية في مرحلة ذيوع الرواية السعودية-،جداول للنشر والتوزيع ،بيروت ،لبنان ط 1،2011

5-حوار مع أحلام مستغانمي م.أصوات الشمال/27-09-2007

6- السابق

7-السابق

8-أحلام مستغانمي ،الأسود يليق بك ،دار نوفل،بيروت ،لبنان،ط1 ،2012

9- أصوات الشمال 2007/09/27

10-أصوات الشمال

11-المرجع نفسه

ونشير إلى أنّ كلّ ما ورد على لسان أحلام مستغانمي أخذناه من هذا المرجع الإلكتروني

12-فضيلة الفاروق ، ج.الشرق/10-11-2012

13-المرجع نفسه

14-نفسه

15-نفسه

16-نفسه

18-آمال بشيري:آخر الكلام،دار ميريت للنشر،القاهرة،ط1، 2009

19- -آمال بشيري:الرواية الجزائرية ....أي مستقبل؟(الجزائر نيوز)/22-11-2010

20-المرجع نفسه

21-حسن العرباوي:جريدة الصباح التونسية نقلا عن الموسوعة الإلكترونية الحرة (ويكيبيديا)

22-ياسمينة صالح:بحر الصمت،منشورات الاحتلاف،الجزائر ،ط1، 2001

23-ياسمينة صالح:حين نلتقي غرباء،قصص،

24-ياسمينة صالح :قليل من الشمس تكفي،قصص،

25-ياسمينة صالح ،وطن من زجاج،الدار العربية للعلوم،بيروت ،لبنان،ط1، 2010

26-مي زيادة:بين الجزر والمدّ،مؤسسة نوفل للنشر،بيروت ،لبنان،ط2، 1983، ص134

27-غادة السّمان:القبيلة تستجوب القتيلة،منشورات غادة السمان(الأعمال غير الكاملة12)،بيروت ،لبنان،ط1، 1981، ص15

28-إدوارد سعيد:الاستشراق،المفاهيم الغربية للشرق،تر:د.مُحَّد عناني،رؤية للنشروالتوزيع،ط1 ،2006

29-أمين الزاوي: حادي التيوس، أو فتنة النفوس لعذارى النّصارى والمجوس، منشورات الاختلاف،الجزائر،ط1، 2011

30-حميد لحمداني: النقد الروائي والإيديولوجيا-من سوسيولوجيا الرواية إلى سوسيولوجيا النص الروائي ،المركز الثقافي العربي،بيروت ،لبنان ،ط1، 1990، ص8

31-أمين الزاوي:حادي التيوس ،ص 171

32-المصدر نفسه،ص15

33-رايمون رايش :النشاط الجنسي وصراع الطبقات،تر:مُحَّد عيتاني،دار الآداب،بيروت ،لبنان، ط3، 1986